مناقشات

حول « الاسلام والرأسمالية »

بقلم خليل أحمد خليل

انا ممن آمنوا بالحوار وضرورته ، بالكتابة والقراءة . وهذه الامور الثلاثة تفترض اختيارا واعيا وثقافة وتجربة معقدة وصعبة . وقد جاء تعليق الاستاذ محمد يحيي النادي كدعوة لطيفة الى تلبية الى احدى رغباتي الصديقة ، واشير اولا الى صعوبة الاشتراك في نقاش لا يتعادل فيه الطرفان ، ذاك أن الاستاذ النادي لم يطلع على كتاب البروفسور رودينسون ، وثانيا يفقد النقاش المكتوب الكثير من حيويته وديناميكته ، فلا يمكن ان يكون النقاش المكتوب ، كما اعتقد ، الا سلبيا من حيث النتائج ، باستثناء بعض الحالات . ولا شك ان الاشتراك في ندوة اكثر ايجابية ومقدرة على تغيير المواقف والمفاهيم وتطويرها . مع ذلك ، لا افقد ايماني بضرورة النقاش المكتوب وللاستاذ النادي مأخذان رئيسيان :

١ ــ مأخذه على البروفسور رودينسون من خلال مقالي .

٢ ــ مأخذه على منهجي في هذا المقال .

ولنبدأ بنقاش مأخذ الاستاذ النادي .

اولا ــ مآخذ على البروفسور ردينسون .

نحب أن نوضح للقراء وللاستاذ النادي بأن رودينسون يتكلم بصورة رئيسية عن القصيدة الاسلامية ، وهو لا يقول بأن العناصر غير العربية لم تلعب دورا مهما في خلق الحضارة العربية الجديدة وفي تطويرها . وهذه النقطة لم تكن مجال بحثه . فالمهم بنظره هو العقيدة الاسلامية والدور الذي لعبته في تطوير الاقتصاد العربي والاسلامي ــ اذا كان هناك اقتصاد ديني ، وهذا ما لا نقر به ــ .

ولو قلنا بتصنيف الحضارة على اساس ديني ، لوجدنا ان الحضارة العربية الاسلامية لم تنتج عن نشاط طائفة معينة ، بل اشترك في تطويرها عناصر دينية متباينة المعتقدات والمسالك . ولو قلنا بتصنيفها على اساس قومي ، وهذا هو الاصح بنظرنا ، نجد ان الشعوب التي انضوت تحت لواء العروبة والاسلام قد شاركت فعلا في بناء الحضارة الجديدة وحملت تراثها القومي لتؤثر بواسطته على مقومات الحضارة العربية عامة ــ الاثر الفارسي مثلا . ــ وفي كلا الحالتين لا نلمس موضوع البروفسور رودينسون . فحينما يقول الاستاذ النادي ان الدين الاسلامي لا يخص العرب وحدهم فهو على حق ، ورودينسون او خليل احمد خليل لا يقولان عكس ذلك . وانما اشير الى وجود فرق حاسم بين القول بأن الفكرولوجيا الاسلامية تخص العالم كله لانها انسانية ، وبين القول بأن العرب قد خلقوا العقيدة الاسلامية وشاركوا في تطويرها اكثر من سواهم . وآثرت الكلام عن العرب ، لا حبا بقومي بل لايماني بأنهم اغنوا التراث الاسلامي اكثر من سواهم . وهذا رأيي لا رأي البروفسور رودينسون .

ولو ظننا ان الفكرولوجيا الاسلامية تشمل كل الطوائف الاسلامية مهما تفاوتت آراؤها ، لقلنا ان كل من اعطى شيئا جديدا يعتبر خلاقا في هذا المجال . الا ان عالم الاجتماع يحتاج الى خلق نموذج يمثل فعلا العقيدة الرئيسية . وفي الاسلام نرى علميا ان السنة تمثل هذا النموذج . ولا ريب ان المجهودات التي قامت بها المدارس الاربع قد القت اضواء جديدة على تفسير العقيدة الاساسية اي القرآن والسنة . فلا الاستاذ رودينسون ولا انا نتجاهل ذلك او نجهله . ورودينسون لم يشر الى دور المدارس الاربع ــ المالكية والشافعية والحنبلية والحنفية . وانا اوافقه على ذلك . فانا ارى انه لم يضف شيء جوهري الى الفكرولوجيا الاسلامية بعد ولادة القرآن والسنة .

ثم يتهم الاستاذ النادي رودينسون بخروجه على منهج البحث الاجتماعي فهل هو على حق ؟ صحيح أن النصوص لا تفسر الواقع ، لكن عالم الاجتماع لا يستطيع ان يستعيد الماضي المندثر بكل حيويته ، فعالم الكيمياء يحضر المادة الى مختبره ويدرسها ، اما عالم الاجتماع فهو مضطر للرجوع الى مصادر كلامية ــ بحذر خاص فيما يخص مدى صحتها ــ ويحاول ان يستنبط الواقع من خلالها ، وكلما طال الرجوع الى ما كتب ، اتسع مجال الابتعاد عن الواقع . فعلم الاجتماع لا يستطيع ان يدرس علميا الا الموجود . والماضي قد اندثر . اما عن تحقيق العدالة في الاسلام ، فقد اشار رودينسون الى تطبيقها في فترة وجيزة ــ عهد الرسول والخليفتين الاولين . ونحن لا نرى ان الاستاذ رودينسون قد قصر في مجهوده او خرج عن منهج عالم الاجتماع .

ثانيا ــ مأخذ على منهجي .

١ ــ يأخذ علي الاستاذ النادي استعمال تعبيرات غامضة . قد يكون على حق اذ أعتبرنا ان استعمال تعبيرات ممضوغة امر ضروري في مجال العلم . لكن علم الاجتماع له لغته الخاصة . وانا اتساءل اين هو الغموض في الامثلة التي اعطاها ــ راجع كلمته ص. ٧٥ ، الاداب عدد ١٠ــ ١٩٦٦ــ

ب ــ ان آرائي واضحة ومتميزة عن آراء الاستاذ رودينسون ، ويكفي العودة الى الضمائر ، للالمام بها . ونوضح ان كتاب رودينسون يحمل آراء وافكارا يعرفها كل الاخصائيين ، وآراؤه الشخصية قليلة بالنسبة الى ما اورد من آراء ، فالعمل العلمي يختلف عن القصيدة والقصة ، لانه غير شخصي .

ج ــ لا بد لاي كاتب ان يعرف بثقافة او بمواقف غير معروفة او يفترض انها كذلك . فأين هو الاستطراد ، حينما احاول ان أبين مكانة الاستاذ رودينسون كمثقف حقيقي بالنسبة الى المثقفين المزيفين . ألم يكن من واجبي التعريف به وهو واضع كتاب مهم ، موضوع حديثنا ؟ وأي شيء يضمن لي ان القراء يعرفون رودينسون ، والقراء الفرنسيون لا يعرفونه جيدا ، كما هو حال كل العلماء الحقيقيين ؟

د ــ يتهمني الاستاذ النادي بفرط حماسي وانبهاري بالكتاب والكاتب . والاصح أن يقول احترامي وتقديري العلمي لاول كتاب رزين ، لا اكثر ، واما عن خلو المقال من نقد ، فليس النقد عملا ايجابيا دائما ، خصوصا اذا لم يكن ثمة حاجة لذلك . وحينما نجد انفسنا امام عمل ناضج لا يثير فينا اي تساؤل فلماذا نهاجم ؟ لقد وجهت بعض الانتقادات الطفيفة وهي متممة اكثر منها مناقضة . وقد كتب الاستاذ ريجيس بلاشير مقالا في جريدة ليموند ، عدد ٦٧٦٥ ص ١٠ ، عن هذا الكتاب ، بتاريخ ٢ اوكتوبر ، ولم يقم سوى بشيء واحد هو عرض الكتاب كعمل علمي كبير ، وقال في خاتمته : « ولا نغالي اطلاقا اذا اكدنا ان هذا الكتاب عظيم . فان اختلاف المواضيع المدروسة وتعقيدها يحتم مطالعات واسعة ومقدرة نادرة على التحليل وجرأة فكرية ، يقدرها له كل انسان . ان كثافة الصياغة لا توقف القارىء طالما انه يتابع سير الكاتب . ونعجب في كل اجزاء الكتاب بالعناية الاصيلة بالنصوص التي تدعم دراسات العقيدة . والكتاب الذي يقدمه لنا رودينسون ليس كتابا جريئا فقط ، وانما هو ايضا كتاب عالم قادر على أن يجعل الاخصائي يفكر ، وان يشرك الاذهان الباحثة في تجددات لا بد منها . »

هـ ــ مبرر استعمال لفظ فكرولوجيا بدلا من أن ايديولوجيا بسيط جدا لماذا لا نقول علم الافكار ، او ناخذ (لوجيا) اليونانية ونضيف اليها ما نشاء لنحفر مصطلحات تناسب لغتنا .

ليون — خليل أحمد خليل

حول « لقاء الثورات »

السبيل الوحيد لهذا اللقاء ...

بقلم الدكتور صلاح خالص

اعتقد ان المقال الذي نشره الدكتور سهيل ادريس في العدد الثامن من مجلة الاداب لهذا العام يطرح مجموعة من القضايا الهامة جديرة بأن تكون موضع مناقشة صريحة مخلصة من قبل المثقفين العرب.. ولكن رغم خطورة هذه القضايا فأن تحقيق ما دعا اليه الدكتور سهيل وهو « لقاء الثورات » يتطلب معالجة جملة من المشاكل الهامة لا سبيل الى هذا « اللقاء » دون حلها . والوصول الى حل سياسي للمشاكل القائمة يتطلب تهيئة فكرية واعدادا نفسيا يجب ان يساهم في ايجادهما قبل غيرهم الكتاب والمفكرون بمناقشة موضوعية بناءة تهدف الى توحيد صفوف الحركة التقدمية لا الى تحطيمها وتفتيتها . وتبدو ضرورة هذه المناقشة في الوقت الحاضر نتيجة لاحتدام ضرام المعركة ضد الاستعمار والرجعية ووجود ضرورة ملحة لتعبئة جميع القوى وتهيئة كل الامكانيات للانتصار في هذه المعركة . ولا حاجة للقول بان مثل هذا الحوار يجب ان يتسم بمنتهى الصراحة والموضوعية ليؤتي ثماره ويحقق وحدة فكرية واتفاقا مبدئيا حول المشاكل التي تقف في طريق « لقاء الثورات » .

ومن الطبيعي ان من السذاجة الطموح الى اتفاق تام حول جميع الجوانب النظرية والتطبيقية للمشاكل القائمة ، ولكن الامر الذي لا شك فيه ان الظروف التي مرت بالبلاد العربية والتجارب التي خاضتها حركة التحرر العربي قد قربت كثيرا من وجهات النظر وكشفت كثيرا من الاخطاء واوضحت الاهداف الآنية التي تقتضيها المرحلة التي يمر بها المجتمع العربي اليوم .. مرحلة الكفاح ضد الامبريالية والرجعية ووضع الاسس المتينة للسير في طريق الاشتراكية وهي الحل الوحيد لازمة التخلف والظلم الاجتماعي اللذين تعاني منهما الشعوب العربية في الوقت الحاضر . ولعل هذا هو المنطلق الحقيقي للقاء الثورات الذي تحدث عنه الدكتور سهيل .. انه يعني امكانية بل وضرورة تكاتف الحركات الثورية في الوطن العربي وتعاونها الوثيق لتحقيق هدفها المشترك وهو سحق الرجعية واقامة اسس المجتمع الاشتراكي المنشود.

تحدث الدكتور سهيل ادريس عن « لقاء الثورات » ، وهو لا شك يعني لقاء الحركات الثورية في العالم العربي عموما ، تلك التي نجحت منها على وجه الخصوص ، كثورة ٢٣ يوليو وثورة ١٤ تموز والثورتين الجزائرية واليمنية .

الا ان طريق لقاء هذه الثورات يجب ان يمر حتما بمرحلة تسبقه ـ ان اريد له النجاح ـ وهي مرحلة رص صفوف كل من هذه الثورات وتنقيتها واستيعابها لقواها الحقيقية وحشدها لجميع القوى التقدمية في البلاد ودخولها مشتركة المعركة ضد العدو المشترك . وتحقيق هذه المرحلة الخطيرة يقع طبعا وقبل كل شيء على عاتق القوى التقدمية في داخل كل قطر من الاقطار العربية سواء منها المتحررة ام غير المتحررة ، وذلك بالاسلوب والشكل الذي ينسجم وظروفها الموضوعية ، ولكن ذلك لا يقلل من مسؤولية القوى التقدمية في البلاد العربية الاخرى في دعم هذه الجهود واسنادها لا سيما وان المعركة واحدة والعدو مشترك ، وان تحقيق وحدة القوى التقدمية في البلاد العربية رهن بتحقيق وحدة هذه القوى في كل من البلدان العربية .. فالامر اذن يهم الجميع ، ومن واجب جميع التقدميين العرب في كافة انحاء الوطن العربي ان يهيئوا له ويسعوا من اجل تحقيقه .

على ان ذلك لا يعني بأي حال من الاحوال فرض شكل واحد من وحدة القوى التقدمية الثورية على جميع البلدان العربية ، مهما كان هذا الحل مرغوبا فيه من الناحية النظرية .. اذ ان اي حل لا يمكن ان يكون واقعيا وناجحا ما لم يأخذ بنظر الاعتبار الظروف الموضوعية القائمة في البلاد وطبيعة القوى التقدمية الموجودة فعلا ومواقفها وتاريخها ودورها في الحركة الثورية .. فالشرط الاساسي لنجاح اية مرحلة جديدة هو عدم تجاهلها للمراحل السابقة وانما اخذها بعين الاعتبار الى جانب الظروف الموضوعية التي تحيط بها ، والافادة من كل ذلك في تحديد الخطوات الجديدة التي تتخذها ..

ولكي يكون الحديث اكثر فائدة والحوار اكثر جدوى فلا بد ان يناقش الوضع في كل بلد عربي وتوضح سماته الاصيلة وتدرس الحلول المطروحة لمعالجته بكل صراحة واخلاص .. وبهذه الروح ساحاول عرض الوضع في العراق والحديث عن الطريق الذي لا بد لثورة الرابع عشر من تموز ان تسلكها لكي تعود جذوتها الى الاضطرام بعد ان كادت تطفئها العواصف .

لقد نضجت هذه الثورة المجيدة عبر نضال شاق عنيد خاضته جماهير الشعب العراقي ضد الاستعمار والرجعية والحكم الملكي منذ ثورة عام ١٩٢٠ حتى ثورة تموز عام ١٩٥٨ . ولم يكن هذا النضال في اكثره ولا سيما في مراحله الاخيرة عفويا ، وانما كان بقيادة منظمات واحزاب سياسية تداعى قسم منها وتخاذل في اتون المعارك الضارية ، ولكن قسما اخر منها صمد واستبسل وحمل راية الكفاح التي رفعها ثوار الرابع عشر من تموز حتى النصر . وتشهد على ذلك سجون العراق ومعتقلاته التي لم تخل طيلة الحكم الملكي البغيض من الاف الوطنيين ، والمشانق التي صعد عليها الاحرار العراقيون وهم يهتفون بحياة الشعب ويعربون عن ثقتهم بانتصاره ، الى جانب الضحايا الكثيرة التي سقطت في المظاهرات والانتفاضات والسجون ، في شمال العراق وفي جنوبه ، فقد سجلت هذه الاحداث كلها بعمق في ذاكرة الشعب العراقي الذي تعود ان لا ينسى ابدا ضحاياه .

وقد ادركت الاحزاب والقوى الوطنية اخيرا بعد التجارب المريرة التي مرت بالشعب العراقي وبعد ان خاضت جماهير الشعب جنبا الى جنب ، على اختلاف اتجاهاتها السياسية ، معارك مشتركة، ادركت هذه الاحزاب والقوى ان لا طريق الى النصر سوى طريق الائتلاف والاتفاق ، سوى طريق الجبهة الوطنية .. وهكذا انبثقت في اوائل عام ١٩٥٧ جبهة الاتحاد الوطني جامعة تحت لوائها القوميين والديمقراطيين والشيوعيين من عرب واكراد ، وتعلقت بها آمال الشعب كله . فلاول مرة في تاريخ العراق الحديث تجتمع القوى الوطنية كلها واضعة امامها اهدافا مشتركة تضمنها بيان الجبهة الاول ، مصممة على العمل يدا واحدة للاطاحة بالحكم الرجعي العميل . لقد كان الدرس بليغا وكانت نتيجته رائعة .. فقد بدت في الافق رغم الكابوس الذي كان يجثم على صدر العراق ، تباشير الفجر المنتظر ... وفي اقل من ثلاث ساعات من يوم الرابع عشر من تموز انهار الحكم الملكي الرجعي وتداعت اركانه دون ان يستطيع ابداء اية مقاومة تحت قبضة الشعب الموحدة وجيشه الباسل . وما كان لهذه النتيجة الرائعة ان تتحقق لولا ائتلاف القلوب وتعاقد الخناصر ، لولا رص الصفوف وتوحيد الاهداف والعمل المشترك تحت لواء جبهة الاتحاد الوطني . وليس ادل على دور الجبهة في قيام ثورة الرابع عشر من تموز من ان حكومة الثورة الاولى كانت تمثل جميع اطراف الجبهة تقريبا ..

ولكن ما اسرع ما نسيت دروس التاريخ القريب .. وما اسرع ما تنكر المسؤولون من رسميين وغير رسميين لجبهة الاتحاد الوطني وادارو ظهورهم نحوها ، فتفككت عراها وتشتتت صفوفها المترامية وارتخت قبضتها الموحدة وتداعى صرحها الشامخ ، وابتدأت الاضواء الوهاجة التي كانت تنير طريق المستقبل تخفت وتتضاءل ، وبدأ الضباب يغمر الامال المشرقة التي كانت واضحة في الافق .. وساعد على كل ذلك عملاء الاستعمار وايتام العهد الرجعي المباد الذين بدأوا يندسون بين الصفوف وفيها ليزيدوها تفككا وبعدا عن بعضها البعض .. كما ساعد على ذلك الحكم الفردي الذي توهم ان لا بقاء له دون تفريق الصفوف.

ثم تلاحقت الاحداث الدامية في العراق العزيز ، وتنكر رفاق النضال المشترك بالامس لبعضهم البعض وتراشقوا بالسهام ، وعملاء

الرجعية والاستعمار بينهم يزيدون النار ضراما والاحقاد جذوة ... واختلط الحق بالباطل ، وامتزج الصدق بالكذب ، وتداخلت صيحات الاخلاص بصراخ المهرجين والدعاة ، وسالت الدماء غزيرة على ارضه الطيبة .. لا دماء اعدائه من مستعمرين ورجعيين وانما دماء ابنائه المخلصين في الشمال والجنوب. ولم يستفد من ذلك كله سوى الاستعمار والرجعية اللذين وقفا لعراق تموز بالمرصاد يتربصان بـــه الدوائر ويتحينان الفرص للاجهاز عليه بعد ان تثخنه الجراح ويؤدي به الاعياء .

فمن المسؤول عن كل ذلك ؟ ـ سؤال يكثر ترداده علـــى الافواه وتتباين الاجابات عليه .. وفي خضم زاخر من الشتائم والتهم والتعصب الاعمى غرقت الحقيقة تحت لجج الدعاية المضللة السوداء .. فلنتـــرك للتاريخ اذن الاجابة عن هذا السؤال ، ولنحاول كل قوة سياسية تشعر بالمسؤولية ان تدرس مواقفها وتتعرف على اخطائها ، وتسلك الطـريق الذي يجنبها هذه الاخطاء ويقودها الى تحقيق اهداف الحركـة التقدمية الثورية ، ولنستخلص من كل ذلك درسا للمستقبل .. درسا نحن في اشد الحاجة اليه .. درسا يضمن لنا حسن العاقبة ويجنبنا سوء المصيـر .

وهذا الدرس ـ كما اعتقد ـ اصبح واضحا مفهوما يفرض نفسه فرضا على الاسماع والابصار . ففي العراق ـ كما في غيره من بلاد العرب ـ معسكران : معسكر الاستعمار والرجعية ، ومعسكر الشعب ، لا سبيل لتعايشهما معا بأي حال من الاحوال ، كما اكد ذلك الدكتور سهيل ادريس ـ فالاول معسكر البغي والفساد والاستغلال والعبودية والفقر والتخلف .. والثاني معسكر الخير والعدالة الاجتماعية والحرية والتقدم .. واذا اريد لثورة تموز ان تنتصر وللعراق ان يسير في الركب العربي المتحرر فلا بد من انتصار معسكر الشعب ، لا بد من القضاء على الاستعمار والرجعية في العراق .. ولن يمكن تحقيق ذلك الا بطريق واحد لا بديل له .. هو وحدة قوى الخير ، وحدة قوى التقدم، وحدة القوى الوطنية المعادية للاستعمار والرجعية ، والوقوف بحزم تجـاه الاستعمار والرجعية واعوانهما وعدم السماح لهم بالتسلل الـى المراكز الحساسة في حياة الشعب والسيطرة على مقدراته .

ان الاصوات التي تتعالى في داخل العراق وخارجه عن تحقيق ذلك ابتداء من الصفر وايجاد تنظيم جديد يتجاهل كل ما هو قائم فعلا ، انما تعكس ـ مهما كانت مخلصة ـ جهلا بالوضع في العراق وعدم ادراك لسير العملية التاريخية فيه ، بل وانكارا لثورة الرابع عشر من تموز نفسها . ان اي عهد او حقبة تاريخية لا يمكن ان يبدأ من الصفر .. فلكي نقيم طابقا جديدا في بناء قائم لا بد من النظر الى اسسه وطوابقه السابقة واقامته عليها .. والمعركة ضد الاستعمار والرجعية لم تبدأ اليوم ، بل بدأت منذ ان حشر الاستعمار انفه في شؤون العراق .. وقد مرت هذه المعركة بمراحل متعددة سجلت فيها صفحات مشرقة ، وساهمت فيها قوى عنيدة صمدت واستبسلت فعمقت بذلك جذورها بين جماهير الشعب ، وكانت نتيجة كل ذلك قيام ثورة الرابع عشر من تموز .. صحيح ان هناك قوى جديدة تنمو باستمرار ، الا ان القـوة السياسية الشعبية لا تخلق ببيان او باجازة رسمية ، وانما تتطـور وتنمو عبر الكفاح المرير والتجارب الغزيرة والمحن الشداد خـــلال سنين طويلة من العمل المرهق الشاق في سبيل الشعب ، وهذا الكفاح الشاق الطويل هو الذي يعطيهـــا خصائصها وصفاتها الوطنيـــة ، لا شعاراتها وادعاءاتها وبياناتها . ان التصور بان من الممكن محو ماضـي الحركة الوطنية في العراق وتجاهله ببسر وهم لا يجلب الا الخيبة والفشل ، ولن يؤدي الا الى تقديرات خاطئة تعود بافدح الاضرار على البلاد .. يجب ان نبدأ من حيث وقفنا ، فقد حققت ثورة الرابع عشر من تموز انتصارها الرائع بفضل تكاتف القوى الوطنية في جبهتها الموحدة . وقد تعثرت هذه الثورة وكبت حين تفككت الجبهة الوطنية وتنكر اطرافها لبعضهم البعض ـ لذلك فليس هناك من سبيل للاستمرار في طريق الثورة سوى اعادة رص الصفوف وتوحيد جميع القوى الوطنية دون استثناء وفي مقدمتها تلك التي اسهمت في خلق ثورة الرابع عشر من تموز ، والسيـر الى الامام . وسيلتحق بالركب من يلحق ويتخلف عنه من يتخلف ، ولكنه سيصل دون شك الى هدفه ويحقق غرضه . ان مجرد الادعـاء بتمثيل الجماهير والتحدث اعتباطا باسمها ، او حتى الاستيلاء علـى الحكم بالقوة لن يكفي وحده لايجاد اية قاعدة شرعية للحكم ، ولن يكون الا غفلة وتجاهلا للوضع الحقيقي في العراق ، ولن يهيىء الجـــو الا للرجعية والاستعمار لكي تعود بشكل او بآخر للقبض على خناق العراق وابعاده عن الركب العربي المتحرر . والى ان ينتهيء للشعب العراقـي ان يعرب عن رأيه ويقرر مصيره بنفسه ويضع ثقته في هذا الجانب او ذاك بحرية تامة ، فان السبيل الوحيد نحو وحدة وطنية رصينة هـو سبيل التآلف والاتفاق في جبهة وطنية متينة للقوى التقدمية ، عربا واكرادا ، تأخذ على عاتقها ضرب الرجعية والاستعمار وتهيئة الظـروف الملائمة للشعب العراقي لكي يقرر مصيره بنفسه .

ان لقاء الثورات الذي دعا اليه الدكتور سهيل ادريس لا يمكن ان يكون حقيقة واقعة الا اذا سارت كل ثورة في طريقها وحققت اهدافها.. ولن نستطيع اية ثورة ذلك الا بتجميع قواها ورص صفوف انصارها.. فمن هنا يجب ان نبدأ .. ومن أجل هذا الهدف يجب ان يسعى المثقفون العـرب ..

صلاح خالص

حول « الجزائر والقومية العربية »

بقلم الدكتور ابو القاسم سعد الله

ثلاث اتهامات وجهها الي الاستاذ عبد الجليل حسن في تعليقه على مقالي « الجزائر والقومية العربية » (1) . (آ) انني ذكرت « كثيرا من القضايا غير الصحيحة » مثل زعمي بان الجزائر كانت اول جزء من الوطن العربي يتعرض للخطر الاجنبي واهمالي للحملة الفرنسية على مصر والشام . (ب) انني كنت « كمن يصوب السهام في الهواء » لانني لم اذكر اسماء المؤرخين الذين اهملوا دور الجزائر فـــي بناء القومية العربية . (ج) ان ربطي حركة القومية العربية بالجزائر فيه « نزعة

صدر حديثا :

الذين لا يكبرون

قصـص

بقلم :

عايدة مطرجي إدريس

٢٠٠ ق.ل منشورات دار الاداب

اقليمية » . واذ اشكر الاستاذ حسن على تعليقه ، احب ان ابدي عليه بعض الملاحظات .

(أ) لقد كنت واعيا لقضية الحملة الفرنسية على مصر والشام حين اكدت بان الجزائر كانت اول جزء من الوطن العربي يتعرض للخطر الاجنبي ، غير انني لم اكن اتحدث عن الاحداث التاريخية في حد ذاتها ولكن عن رد الفعل القومي وعلاقته بالحدث التاريخي . ومن هنا كتبت في الفقرة الثانية من المقال ما يلي « ان قومية اية امة هي اساسا رد فعل ضد خطر اجنبي » وذلك قبل ان اكتب الجملة التي نقلها الاستاذ حسن وهي « ان الجزائر كانت اول جزء من الوطن العربي يتعرض لمثل هذا الخطر الاجنبي » . ولا ادري لماذا اهمل الاستاذ المعلق الجملةالاولى واكتفي بايراد الثانية رغم وضوح التسلسل المنطقي بينهما .

وما دامت القضية هي قبل وبعد كل شيء قضية محتوى قومي للحدث التاريخي فلا نستطيع ان نضع الحملة الفرنسية على مصر والشام والاحتلال الفرنسي للجزائر في درجة واحدة ، وذلك للاعتبارات الآتية: (1) ان الاول (الحملة) كانت خطرا مؤقتا غير مباشر سرعان ما زال بينما كان الثاني (الاحتلال) خطرا دائما ومباشرا . (٢) ان فشل الحملة قد ادى بالضرورة الى فشل اهدافها ، وبالتالي ضآلة مفعولها على الكيان القومي . اما نجاح الاحتلال فقد ادى حتما الى تحقيق اهدافه وهي خلع سيادة ، وانتهاك حضارة (لغة ، دين ، تقاليد) ، وتشريد شعب ، واغتصاب ارض ، وبالتالي ادى الى رد فعل قومي . (٣) ان الحملة كانت في الحقيقة (على الاقل بناء على المصادر الموجودة) موجهة نحو مصر والشام لا باعتبارهما كيانا مستقلا قوميا ، ولكن باعتبارهما مسرحا للسياسة الدولية المتنازعة في ذلك الوقت . فالخصومة كانت اساسا بين الفرنسيين من ناحية وبين الانكليز والعثمانيين من ناحية اخرى ولست بين الفرنسيين والعرب هكذا . (٤) ان مقاومة الشعب العربي في مصر والشام للحملة كانت جزءا من الاستراتيجية التي وضعها الانكليز وحلفاؤهم العثمانيون للقضاء على عدوهم ، ولم تكن « رد فعل قومي ضد خطر اجنبي » كما كان الحال بالنسبة للجزائر . ولو كان عرب مصر والشام يقاومون الحملة في ذلك الوقت باعتبارها خطرا اجنبيا لشملت مقاومتهم الانكليز والعثمانيين ايضا اذ ان كلهم كانوا « اجانب » حسب المفهوم القومي . (٥) من الممكن القول بان موقف عرب مصر والشام اذ ذاك كان يشبه موقف العرب الذين حاربوا مع او ضد احد المعسكرين المتنازعين خلال الحربين العالميتين دون ان تكون لهم مصلحة مباشرة في الحرب نفسها . اما مقاومة الشعب العربي في الجزائر للاحتلال الفرنسي فقد كانت صراعا بين قوتين متناقضتين في كل شيء دون تدخل او وجود اية قوة ثالثة في الموضوع . ومعنى ذلك ان المقاومة هنا كانت دفاعا ذاتيا وتلقائيا عن الكيان القومي الذي كان حقا مهددا بالخطر . ولذلك قلنا ان رد الفعل الذي قام به عرب الجزائر عندئذ كان الاول من نوعه وانه كان يمثل نقطة الانطلاق القومي في تاريخ العرب الحديث .

(ب) ليس عندي ما اضيفه بخصوص هذه النقطة . فما ازال اعتقد ، الى ان تظهر حجة جديدة ، بان « كل » مؤرخي القومية العربية، من عرب واجانب ، قد اهملوا دور الجزائر في تشييد القومية العربية في الفترة التي تناولتها ، وذلك لاعتبارات تاريخية وسياسية ليس هنا محل سردها . وقد كنت اود ان لو ارشدني الاستاذ حسن الى مؤرخ واحد يخالفني في رايي ، بدل ان يسألني ان اذكر له هؤلاء المؤرخين . واحب ان اؤكد له بأني مستعد ان اتراجع عن نظريتي اذا ظهر ما ينقضها تاريخيا وعلميا .

غير ان هناك توضيحا لا بد من ايراده بخصوص هذه النقطة . ان حديثي كان عن « دور » الجزائر في حركة القومية العربية وليس عن « كفاحها » كما فهم الاستاذ المعلق . ولا شك ان هناك فرقا بين التناولين . فقد عبت على مؤرخي القومية العربية اهمال الدور القومي الذي قام به عرب الجزائر . اما موقفهم من كفاح الجزائر السياسي والعسكري فلم اتعرض له لعلمي ان المستعمرين انفسهم قد تناولوه باطناب . واذن فقد كنت اتحدث عن قضية واحدة هي قضية التاريخ للقومية العربية وعلاقة الجزائر بها ، وعن فترة معينة وهي من الاحتلال (١٨٣٠) الى نفي الامير عبد القادر (١٨٤٧) (٢) .

(ج) اما بخصوص اتهامي بالنزعة الاقليمية فلا اريد ان اخوض فيه باكثر من هاتين الملاحظتين : (1) في اول المقال « الجزائر والقومية العربية » يجد القارىء السببين اللذين دفعاني لكتابته، احدهما «النزعة الغربية التي تروج الان في الجزائر لاقلمة الثورة» . ومن الغريب ان الاستاذ المعلق قد تغاضى عن هذا رغم انه من الواضح ان المقال في حد ذاته كان هجوما على الاقليمية التي ما تزال تعيش في عقول بعض الجزائريين . (٢) حين القيت موضوع المقال كمحاضرة في جامعة الجزائر خرج الاقليميون ينعتونني « بالقومية » و « الشرقية » و « البعثية » وغير ذلك من العبارات التي لها مدلولاتها الخاصة عند هؤلاء ، وكلها تعني انني لم اكن ، على الاقل في نظرهم ، اقليميا .

فاذا كانت محاولة تصحيح خطأ تاريخي تعني في نفس الوقت « الاقليمية » عند البعض و « القومية » عند الاخرين ، فيا ضيعة الحقيقة ! ويا ويح اهلها !

ابو القاسم سعد الله

---

(١) انظر المقال في « الاداب » (تموز ، ١٩٦٦) ، والتعليق في نفس المصدر (اب ، ١٩٦٦) .

(٢) وقع خطأ مطبعي في بعض التواريخ التي اشتمل عليها مقال « الجزائر والقومية العربية » . واذا كان تاريخ احتلال الجزائر لا يغيب عن القارىء فاني احب ان اشير الى ان حمدان خوجة قد قدم مذكراته سنة ١٨٣٣ وليس ١٨٤٤ .

« منشود »

★★★

ضحكت له الدنيا في حداثته ، ثم ذاق طعم الالم حين فقد والديه . اقام فترة في بيروت ، فاختلط بالحياة الاجتماعية ، وعرف من الاعيبها واطوارها ما ترك في نفسه اعمق الاثر : احب ، وخاب ، وتعذب ، وصبر ، ومرت به حوادث غنية بالعبر ، فعاد الى بلاد جبيل ، مسقط رأسه ، وفي نفسه خضم من الهموم . غير ان القدر كان له بالمرصاد ، يعد لقلبه المتألم وفكره المشرد مآسي جديدة . فهل اعتبر الالم افضل مدرسة في الحياة ؟ وهل تعلم من الكوارث كيف يجالد صروف الحدثان ؟

هذا ما يجدر بك ان تعرفه في قصة **منشود** لنسيب عازار، وهي مستمدة من صميم الحياة اللبنانية ، وقد اجاد المؤلف في سرد الحوادث ، وتصوير الاخلاق ، وابراز خصائص الاشخاص ، باسلوب سهل المأخذ، مشرق البيان، فاطلب هذه الرواية من **دار المكشوف** بيروت ، ص.ب. : ٥٨١